ولد محمد فكان رحمـــة للعالمين

للأستاذ السباعي بيومي

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان مولده للعرب ، النور الساطع على قوم تتقاذفهم الظلمات ، والغيث النافع لأناس تأكلهم السنوات ، وسرعان ما اهتدى الحائرون بنوره ، وأخصب الجائعون بفيئه ، وإذا بالعرب تخرج على العالم رسل هداية ورواد خير ، وإذا العالم يخرج من الظلمات إلى النور ، فتعمه الهداية والنعمة ، وتهبط عليه السكينة والرحمة ، تحقيقا لقول الله سبحانه فى نبيه « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

١ ـــ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب شتى المذاهب مختلفة المشارب ، فلا دين يجمعهم ولا عقيدة تنتظمهم ؛ ثم هم فاسدو العبادة متعددو ألوانها ، فمنهم المشرك عابد الصنم والوثن ، وما هو إلا حجر ينحته بيده وينقلب بعبده ، دون نفع يرجى ولا ضر يخشى ، ومنهم الصابىء عابد الكواكب والنجوم ، لا يرى فى أفولها نقصا ، ولا فى اختلاف أحوالها طعنا ، ومنهم المجوسى عابد النار والشمس ، يسجد لها فى طلوعها ، ويقيم بيوت النار تعظيما لشأنها ، ومنهم الدهريون الذين ينكرون البعث والنشور ويقولون « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ومنهم الزنادقة الثنويون الذين يجعلون الصانع اثنين ، فاعل خير هو النور ، وفاعل شر هو الظلمة ، ويقولون إنهما قديمان باقيان ، ومنهم عباد الشياطين مخافة شرها وعباد الملائكة رجاء خيرها ، ثم منهم اليهود والنصارى ، ومنهم غير من ذكرنا ، فدعاهم إلى دين واحد هو دين الاسلام ، الذى أساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن

محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فبدأ تلك القواعد الخمس بالتوحيد ، وجعل الجهاد من أجله فرضا ، وآذنهم أنه يغفر ما يشاء لمن يشاء إلا أن يشرك به حيث قال « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وبهذا وحد بينهم فى العقيدة ، وجمعهم فى صعيد واحد للعبادة ، وكان هذا الاتحاد القلبى ، النعمة الكبرى التى امتن بها عليهم حيث قال لهم « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » .

٢ — وجاءوهم أسرى أوهام وخرافات ، يدينون بالعرافة والكهانة ، ويعتقدون فى الزجر والعيافة ، بل فيما هو دون ذلك من سائر الأوابد ، كالصدى والهامة وتعليق الحلى على الملدوغ ليسلم ، وكى الصحيح ليبرأ الأجرب ، وضرب الثور لتشرب البقر ، ووطء المقلات دم الشريف ليعيش ولدها ، ثم هم يستقسمون بالأنصاب والأزلام ، فيكفون عما أرادوا ويقدمون على ما كرهوا ، إلى غير ذلك مما ران على قلوبهم وغشى أبصارهم ، فانتزعه الاسلام منهم وانتزعهم منه ، وبذلك خلصت من الأوهام عقولهم وسلمت من التخريف أفكارهم .

٣ — وجاءوهم مضطربو المعاملة خاسرو التجارة ، يأكلون الربا الفاحش ويلعبون الميسر المدمر . فحرم عليهم الربا حيث أحل البيع ، ونهى عن الميسر حيث نهى عن الخمر . ونظم لهم معاملتهم وتجارتهم ، حيث جعل لهم تشريعا مدنيا شاملا لم يسبقه مثله ولم يلحقه إلا ما هو منه أو هو دونه . فبدل من ظلمهم عدلا ومن فوضاهم نظاما ، وكذلك فعل فى التشريعين الشخصى والجنائى . وسائر التشريعات الاخرى ، مما لا تزال السمحة تعلو به سائر الشرائع ، وتمد العالم منه بالبرهان الساطع والنور اللامع ، الذى لا ينقطع ضوءه ولا يخبو شعاعه ، والذى لا يزال على مدى الأيام تتكشف أسراره وتتضاعف أنصاره ، فيعترف به الجاحدون ويرى بعد نظره المتبصرون ، وان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون

٤ — وجاءوهم غلظة دونها أكباد الابل . وقسوة أهون منها قسوة الحجارة . يقتلون أولادهم للفاقة بل خوف الفاقة . ويئدون بناتهم للقالة ، واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه

على هون أم يدسه فى التراب ، فنعى عليهم جنوحهم وشدد النكير على فعلتهم . إذ ختم سبحانه تلك الآية بقوله ، ألا ساء ما يحكمون ، وقال فى أخرى ، واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ، فسلكها مع جسام الحوادث المخربة تهويلا لها وتبشيعا . ثم نهى عن قتل الاولاد فى كثير من الآيات كقوله سبحانه ، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ، وقد أكثر صلى الله عليه وسلم مطالبتهم أن يكونوا كما كان ، أرقاء القلوب رحماء فيما بينهم ، فكانوا كما أراد وظهر ذلك فيهم ظهور الشمس فى الرائعة ، حتى فى الشخص الواحد من مخضرميهم . وآية ذلك عمر رحمة الله عليه ، فقد كان فى جاهليته أقسى القساة وأصبح فى إسلامه أرحم الرحماء . الا ما أجاب بشدته فيه داعى الدين . وهذا لا يتنافى مع الرحمة فى كثير ولا قليل .

٥ — وجاء وهم يدينون بالعصبية والقوة . يفنى كثيرهم قليلهم ، ويأكل قويهم ضعيفهم ، لا يزالون يوالون النهب والسلب . والابتزاز والغصب . تقوم بينهم الحرب لأوهى سبب ، ويطول على بقائها فيهم الامد . حتى تفنى بها كبارهم ، وتنقطع منها ذراريهم وأنسالهم ، ثم شطت بهم النعرة حتى جعلوا الفضل لهم على سواهم بالجنس ، وجعلوه فيما بينهم بكثرة المال وعزة النفر ، فأنكر عليهم ذلك حتى سوى بينهم وبين أنفسهم كما سوى بينهم وبين غيرهم ، وبهذا كان راية السلام يستظلون بظلها ، وآية الوئام يعملون على تأييدها ، فلا قتال الا فى نشر دين الله ولا غزو الا فى إعلاء كلمته ، وتم فى هذا السبيل توحيد كلمتهم ، وصاروا من أجله يدا واحدة على من سواهم فى غير تفاخر بالآباء والاجداد ولا تكاثر بالأموال والأولاد ، وبهذا أعلن مبدأ المساواة العامة تحقيقا لهذه الآية الكريمة (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ذلك المبدأ الذى لا يزال العالم بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا فى عجز عن تحقيقه ، ولا تزال الجماعات تلو الجماعات ، وآخرها هيئة الأمم المتحدة وفروعها ، تتعثر فى سبيل إقامته ، والله يشهد أن لا عجز ولا عثار ، إنما هو الزيغ فى العقيدة والطمع فى النفوس ، يقفان بقادة العالم فى الطريق ، ويقذفان فيه أمامهم بالقذى والاشواك ، ألا إنهم لو اتخذوا باخلاص

نية وبعد عن المطامع - هذه الآية الكريمة دستورهم وقانونهم، لو جدوا الطريق إلى تحقيق المساواة العامة معبدا، والسير فيه الى توطيد سلام العالم سهلا هونا، تلك الاية التي حين نسبت الناس الى الاصول لم تلحظ الا الذكورة والأنوثة اللتين هما سبب الوجود فقالت، انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وبهذا ضربت عرض الحائط بالأنساب والأحساب ، والتي حين أرادت أن تضع أساسا للتفضيل - ولا بد للعالم من تفضيل ، جعلته التقوى ، فقالت إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ثم التي أخذ منها صلى الله عليه وسلم قوله في خطبة الوداع ، أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلكم لادم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ،هذا وإن له صلى الله عليه وسلم في تحقيق هذه المساواة لجهادا فيه الكثير من العظات .

١ — ففي سبيل القضاء على الجنسية، كان سلمان الفارسي ، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، من أكرم صحبه عليه ، وفي سبيلها زوج زينب بنت عمته ابنة عبد المطلب سيد البطحاء ، من زيد بن حارثة مولاه .

٢ - وفي سبيل شد الأواصر بين المسلمين الأولين ، عقد المؤاخاة حين قدم المدينة بين المهاجرين والأنصار ؛ وفي سبيلها حول تلك المؤاخاة الخاصة الى أخرى عامة بين جميع المؤمنين تحقيقا لقوله سبحانه (انما المؤمنون أخوة)

٣ وفي سبيل توثيق العلاقات بين المسلمين وغيرهم، سن ما سن في معاملة أهل الذمة والمعاهدين من حيث الجزية ، بل في سبيلها لم يأخذ الجزية من أهل خيبر حين نزلت آياتها احتراما لعهد سابق كان منه لهم ولا جزية فيه قبل نزول تلك الايات

— وبعد —

فقد آن لنا أن نتجاوز هذه الناحية التشريعية ، الى الناحية الخلقية، التي ضرب صلى الله عليه وسلم للعالم فيها أحسن الأمثال، فكان الاسوة الحسنة والقدوة المثلى ، بل كان كما قال، بعثت لأتمم مكارم الاخلاق، على أن سعة هذه الناحية جعلتنا نتخير من دوحتها الباسقة الفروع الوارفة الظلال ، خلقين اثنين، هما الصبر والتواضع - وكلاهما في الفضائل جماع - لنسوق عنه بعض الآيات

أما الصبر على عمومه ، ومنه الحلم عند المقدرة فكان عليه الصلاة والسلام بطل العالم فيه ، تحمل الصبر على بالغ الأذى ، وعفا وصفح على بالغ الذنب مع عظيم المقدرة، مرجحا دائما حق الله فى حدوده على حقه نفسه ، وهذى بعض الأمثال : —

شج قومه رأسه وفعلوا به الأفاعيل فى كثير من الحوادث وعلى طول السنين ، فكانت شيمته دائما العفو والصفح ، ولكنهم حين فوتوا عليه صلاة العصر فى غزوة الخندق التى شغلته عنها، غضب ودعا عليهم بأشد ما يشغل ويهول ،حيث قال « اللهم املأ بيوتهم نارا » .

واجتذبه أعرابى من ثوبه وكان خشنا حتى احمرت رقبته طالبا إليه راحله ، فلم يزد أن التفت إليه مبتسما وهو يقول لقد آذيتنا ثم أعطاه إياها .

وقد تجاوز فى صبره على الأذى وحلمه عند المقدرة ، الحدود المعروفة لهما فى عرف الأخلاق ، فعطف على المؤذين ورأف بالمذنبين ، ومن آيات ذلك صلاته صلى الله عليه وسلم على رأس النفاق عبد الله بن أبى وتكفينه إياه فى ثوبه واستغفاره له .

بل إن عطفه تجاوز الناس إلى الحيوان،فى غير داع الى العطف كبير،حتى كان عليه الصلاة والسلام يميل الاناء للهرة ليسهل شربها منه ، ثم يفتى فيتوضأ من ماء هذا الاناء .

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم،فقد أتى من الآيات فيه بالعجب العجاب ومنها:-

١ - اختياره صلى الله عليه وسلم أن يكون نبيا عبدا لا نبيا ملكا حين خيره الله بينهما جريا على طبيعته الممثلة فى قوله « اللهم أحيينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين »

٢ - وجوده بين أصحابه كاحدهم أو أقلهم ، حدث أن انقطع شسع نعله وهو يطوف فتسابق أصحابه اليه، وقد أخذه بيده ليصلحه،وهم يقولون،نحن نكفيك يارسول الله فقال « قد علمت أنكم تكفونى ولكنى أكره أن أتميز عليكم، فان الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه »

٣- تجاوزه بهذا التواضع صحبه الى سائر الناس ، فقد تواترت الرواية بأن المرأة

لا الرجل ، والأمة لا العبد ، كانت تأخذ بيده فى حاجتها ، وقد تكون خارج المدينة فتقوده اليها ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت . ثم يعود قار العين مطمئن الفؤاد .

٤ـ رأفته البالغة فى معاملة الخدم ، قال أنس بن مالك ، خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، ولا قال لشىء صنعته لم صنعته ، ولا لشىء تركته لم تركته ، وكذلك كان مع سائر الخدم حتى العبيد والإماء .

٥ـ وداعته المثالية مع الأحداث ، دخل عليه وهو ساجد يصلى سبطه الحسن وهو صبى ، فركب على ظهره فأطال عليه الصلاة والسلام السجود حتى نزل ، فلما انتهى من صلاته سأله أصحابه لم أطلت السجود يارسول الله فقال إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله .

ومع هذا التواضع الجم كانت له هيبة تنخلع منها القلوب ، دخل عليه رجل للكلام فى حاجة ، فأخذته من هيبته رعدة استعصى معها القول ، فقال له هون عليك فانى لست ملكا ولا جبارا ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد — والتفت إلى أصحابه فقال — إنى أوحى إلى أن تواضعوا ألا فتواضعوا أيها الناس حتى لا يبغى أحد على أحد ، وكونوا عباد الله إخوانا » فسكن روع الرجل وتكلم .

حقا إنك يارسول الله المبعوث لتتم مكارم الاخلاق ، وحقا إنك لذو الخلق الذى أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم وما يسطرون على وصفه بعظمة قبل أن يقول « وإنك لعلى خلق عظيم » هذا وإن اللفة فى الآية الكريمة عن وصف الخلق بالكرم كما كانت عادة العرب ، الى وصفه بالعظمة ، إنما كانت ، لما كان فى خلقه صلى الله عليه وسلم من السعة ، التى كما تشمل نواحى الرقة والعطف ونحوهما مما يتصل بالكرم ، تشمل نواحى أخرى من الفضائل التى تتجاوز الكرم الى غيره من العدل والحزم ونحوهما مما يدخل مع الكرم فى دائرة العظمة التى عدل عن الكرم اليها ، فكان هذا العدول من أبلغ ما يكون ، فى الخروج عن مقتضى الظاهر الى غير الظاهر كما يقولون .

وختاما لك منا يارسول الله بعد الصلاة ، السلام يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيا ؟

المباعى بيومى